مقـــدّمة

بقلم

أحمد محمد حسين هيكل المحامى

« الشرق الجديد » مجموعة من فصول الدكتور هيكل ومقالاته تضمها دفتيّ هذا الكتاب لأول مرة .

وهو يبدأ ببيان ما كان بين الشرق والغـرب من صـلات تنوعت وتعددت خلال القرون ، وازدهرت حيناً ثم لم يمنع تضاؤلها من بعد أن تعود لتبرز فى صورة جديدة ، قد تكون بالغة أقصى درجات العنف ، أو تكون علاقة سلم لا يبلغ درجة التفاهم ، حيناً آخر . وهذا التطور فى صوره المختلفة ، قديمها وحديثها ، هو موضوع الفصل الأول من هذا الكتاب .

ولئن كان مقرراً اليوم أن على الشرق أن يسرع الخطى إلى إقامة حضارة جديدة فى ربوعه ، يمزج فى أصولها بين مثله الروحية التى قامت عليها حضارته الأولى وبين مقتضيات حياته المادية فى هذا العصر ، مزاجاً يكفل التوازن بين جانبى الحياة الروحى والمادى ، فإن السبيل الصحيح ، الذى لا سبيل غيره ، للكشف عن مقومات هذه الحضارة المتوازنة وتوضيح معالمها ومميزاتها هو الإدراك السليم لحرية الفكر بأوسع ما يتسع له هذا اللفظ من المعانى ، لأن تلك الحرية هى الوسيلة المباشرة لنشر الأفكار

بين الجماعات ، فتتولد عنها الحركات الفكرية التى تعتبر الأساس الذى لا تقوم حضارة بدونه .

على أنه إذا كان لا قيام للحضارات إلا على أساس حركات فكرية عميقة الجذور فى الجماعات المختلفة ، فإن الثورات والحروب نتيجة كذلك لنوع آخر من الحركات الفكرية لا تلبث أن تدفع بالناس إلى الثورة على المفاهيم والقيم الموروثة التى تسربت إليها عوامل الاضمحلال فضعفت ثم حطمتها الحرب أو الثورة فيما حطمت ففقدت بذلك نهائياً قدرتها على صيانة السلام بين الأمم أو حماية نظمها الاجتماعية ، فوجب أن تقوم على أنقاضها أفكار وقيم جديدة تتفق مع ما تتجه إليه الجماعة فى طورها الجديد .

والحركات الفكرية التى تقوم على أساسها الحضارات ، وتلك التى تؤدى إلى قيام الثورات والحروب ، وأثرها جميعاً فى بناء الأمم بعامة ، وأمم الشرق بصفة خاصة ، كلها موضوع الفصل الثانى من هذا الكتاب .

وكيف لحديث الشرق أن يكتمل دون أن يذكر فيه « المهاتما غاندى » « روح الهند العظيم فى العصر الحاضر » . و « غاندى » ، كما يصفه الدكتور هيكل ، من بناة هذا القرن العشرين ، لا لمجهوداته السياسية فحسب ، تلك المجهودات التى انتهت إلى حصول الهند على استقلالها وحريتها لتصبح من بعد قوة ذات وزن فى أمور السياسة الدولية ، بل لمنهجه الاجتماعى الذى استهدف به تحرير المنبوذين ومساواتهم بسائر أبناء الهند ، ولاتجاهه الإنسانى الرفيع الذى سما فيه بالكرامة الإنسانية للناس جميعاً ، دون تفرقة مهما كان سببها ، فوق جميع الاعتبارات .

واهتمام الدكتور هيكل بثقافة الشرق الأقصى وتطوره متصل على

صفحات « السياسة » وغيرها من الصحف والمجلات بما كان ينشره فيها من المقالات بين الحين والحين ، إلى أن دعته حكومة الهند فى عام ١٩٥٣ للاشتراك فى ندوة دُعى إليها عشرة من كبار مفكرى العالم لدراسة أساليب « غاندى » ومدى نجاحها فى المحافظة على السلام ، فأتاح له ذلك أن يدرس فى استفاضة حضارة هذه البلاد وتطورها ونهضتها الأخيرة دراسة دوَّن خلاصتها فى عدد من المحاضرات والمقالات التى نشرت من قبل فى « السياسة » . وهذه المحاضرات هى قوام الفصل الثالث من هذا الكتاب .

* * *

ولقد اتخذت كلمة الشرق فى هذا العصر معانى متعددة تختلف باختلاف المجال الذى تستعمل فيه . فهى فى الفنون والآداب تختلف عنها فى السياسة والاجتماع ، وهذه جميعاً قد تختلف كثيراً أو قليلا عن معناها الجغرافى البحت . فنحن حين نتحدث عن الأديان السماوية نقصد بالشرق مصر وفلسطين وجزيرة العرب ، وحين حديثنا عن غير ذلك من الأديان نقصد الصين والهند وما اصطلح اليوم على تسميته بالشرق الأقصى . وحين يكون الحديث فى السياسة نقصد بالشرق عادة روسيا السوفييتية وما يدور فى فلكها من البلاد الشيوعية ، وحين تكون الفنون هى موضوع كلامنا ينصرف معنى الشرق إلى الفن الفرعونى أو الفن الهندى القديم أو إلى الفنون الفارسية والإسلامية وما إليها . وليس حتماً أن تتطابق معانى الشرق المتعددة على هذا النحو على معنى الشرق الجغرافى ، بل قد يشمل بعضها مناطق هى من صميم الغرب سرت فيها روح الشرق ، وقد يعزل من الشرق مناطق أخرى أقرب فى تفكيرها وحياتها إلى ناحية الغرب .

وموضوعات هذا الكتاب تتصل بأكثر من معنى من هذه المعانى ، وهى ترتبط كلها فى النهاية بهذه النهضة السارية فى أنحاء الشرق جميعاً والتى تستهدف بعث الحضارة الأصيلة لبلاده التى يتمتع منها الشرق العربى بنصيب وافر . وإذا قلنا إن الهدف بعث الحضارة الأصيلة لبلاد الشرق فليس معنى ذلك أن نقيم الفرعونية فى مصر والفينيقية فى الشام ، والآشورية فى العراق مثلما كانت قائمة فى كل منها منذ بضعة آلاف من السنين . . . وكما اعتقد البعض فى وقت من الأوقات ، معترضين بأن إبراز هذه الحضارات والدعوة إلى بعثها غير مستطاع فى عالم اليوم ، لأن فيه تجاهلا لعوامل الوحدة بين بلاد الشرق العربى والتى صاغها التاريخ فى قوالبه التى يرتبط بعضها ببعض بأوثق رباط . والمقصود ببعث الحضارة الأصيلة للشرق إبراز ما كان فى هذه الحضارات من وجوه الشبه وعوامل الاتصال بين الشعوب المختلفة حينئذ . فنعمل على تقويتها ووصلها بما جد من بعد على بلادنا من تطورات ، لأن تاريخ العالم وحدة لا سبيل إلى انفصامها ، وإن الحضارات تقوم فيه بعضها على أثر بعض دون أن يفنى بعضها بعضاً أو يقضى عليه لأنها جميعاً حلقات فى سلسلة متصلة تندمج معالم بعضها فى البعض ما دامت متفقة مع تطور الإنسانية وتجددها .

وقد كتب الدكتور هيكل فى ذلك يقول . . . « إن دراسة هذه الحضارات (١) الغابرة التى قامت فى مصر والشام والعراق وصور الشبه وصور الاختلاف بينها من شأنه أن يلقى كثيراً من الضياء على ما تطورت إليه الحضارة الإسلامية خلال هذه الخمسة عشر قرناً وجهت فى أثناء عصور طويلة منها مصير العالم ، وهى تزداد كل يوم انتشاراً

---

(١) الفرعونية والعربية : مقال نشر فى ملحق السياسة رقم ٣٢٣٢ فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٣ ص ٤

وإن عدت عليها من حين لحين عاديات الزمن فركدت أوجمدت. فهذه الحضارة الإسلامية لم تنشأ ولم يكتمل نظامها فى حياة النبى عليه السلام ، بل تكونت من بعده شيئاً فشيئاً باختلاطها بالحضارات المختلفة التى غزا المسلمون بلادها والتى تمثلوها بعد أن تأثروا بها وأثروا فيها . وكلما ، ازددنا فى إدراك هذه الحضارة دقة كنا أكثر على بعثها قوة واقتداراً ، ويومئذ تبرز الفكرة الإسلامية ، أو الفكرة العربية كما يريد البعض تسميتها ، قوية ممتلئة جدة وحياة ونشاطاً ، وثَّابة إلى ميادين هذه الحياة التى تحيط بنا ، قديرة على أن توجهها إلى نواح جديدة ليست الفرعونية ، وليست العربية ، وليست إسلامية العصور الوسطى ، ولا هى إسلامية عصور الانحطاط التى تجاورنا وما تزال تغمرنا ، بل إلى نواح تسبغ على الحياة الجديدة التى استمدت من العلم قوتها المادية روح الحضارة الإسلامية العريقة فى سموها المعنوى . فدراسة هذه العصور القديمة هى إذن وسيلة لمزيد من الدقة فى دراسة العصور التى خلفتها والتى تأثرت من غير ريب بها .

« وإن من فادح الخطأ الظن بأن الإسلام والحضارة الإسلامية قد عفت على ما قبلها وطمسته طمساً ، وإن العرب قد استأصلوا كل من سواهم ممن أقام بالبلاد التى غزاها الإسلام . ولبيان ذلك يجب أن نفرق بين الإسلام كدين ، والإسلام كحضارة ، الإسلام كدين يقرر عنه الكتاب الكريم أنه يعيد الأديان التى سبقته فى صورتها الصحيحة ويزيل ما دخل عليها من تحريف الكلم عن مواضعه ويجلو الحقيقة الأزلية الخالدة إلى الناس كافة . وهو قد عمَّ كعقيدة منذ اليوم الأول فلم يكن لأساسه — أساس الإيمان بالله وحده والإسلام له جل شأنه لا شريك

له – أن ترد عليه أية صورة من صور التطور أو التغير . أما الإسلام كحضارة فقد كان يتطور على مر القرون ، وظل يتمثل الحضارات التى جاورته حتى كان « ابن رشد » و « الفارابى » وغيرهما ممن نقلوا الفلسفة اليونانية إلى العربية ، وممن عاونوا أكبر عون على بعثها عندما بعثها الغرب مستعيناً بهؤلاء العلماء والفلاسفة المسلمين .

« وأقول إنى لا أرتاب فى أن العصور الإسلامية تأثرت بالعصور التى سبقتها لهذا الذى قدمت من درامة الفلسفة اليونانية ولما انتقل إلى العرب من أدب الفرس . وليس معقولا أن يكون اليونان والفرس هم وحدهم الذين أثروا فى الحضارة الإسلامية وأن تكون مصر والشام والعراق غير ذات أثر عميق أو سطحى فيها . هذا ثم إنى أؤمن بالوراثة إيماناً صادقاً قوياً . أؤمن بها فى الجماعات كما أؤمن بها فى الأفراد . ولعلها فى الجماعات أدق وأبقى ، فلن يسيغ عقلى لذلك أن أتصور إمكان الانفصال بين زمن وزمن فى بقعة واحدة من الأرض انفصالا يمحو كل صلة بين الزمنين ، ولن يسيغ عقلى ألا يتأثر الحاضر بالماضى ولو أصبح هذا الحاضر فى يد قوة طارئة لها من السلطان كل ما يمكن أن يكون لها . وها نحن أولاء تغزونا الحضارة الغربية منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى اليوم ، أى منذ قرن ونصف قرن ، غزواً ذريعاً ، فهل محت هذه الحضارة مقوماتنا أو مقومات أية أمة شريفة أخرى . وهبها وصلت إلى تغريب الشرق – على حد تعبير بعض علماء الغرب – فهل تنقطع صلة حاضر الشرق بماضيه ؟ إن قليلا من التفكير ليدلنا على أن ذلك لن يكون ، ويدلنا على أن من يريد أن يفهم حضارة مصر بعد ألف سنة ، ومن يريد أن يفهم حضارة الشرق بعد ألف سنة ، لا غنى له عن أن يرجع إلى كل العهود التى سبقت هذه

الحضارة حتى يصل إلى مصر الفرعونية وإلى ما قبل مصر الفرعونية إن كشف التاريخ عن شيء كان قبلها » .

« . . . فإذا وضحت هذه الحقائق بعد طول التنقيب والدرس ، وألقت على الوجود ساطع ضيائها ، أمكن أن تلتقى وأن تكون منها وحدة هى أقوى من كل وحدة تدور بخاطر إنسان ؛ وحدة روحية قوية تنتظم الحاضر والمستقبل وتدفع الناس إلى حضارة تتضاءل أمامها الحضارات التى عرفت حتى اليوم ، لأنها تكون حضارة أوسع أفقاً ، وأغزر مادة وأغنى بماضيها الأصيل العريق .

لو أن هذه الفكرة لم يقتصر تطبيقها على الشرق الأدنى ، بل امتدت إلى ما وراءه من بلاد الشرق الأقصى ، فماذا تكون النتائج فى شأن حضارة الإنسانية ! وماذا يكون الأثر فى إقامة وحدة الوجود حقيقة ملموسة » ! !

ولئن كان لا محيد بعد ما قدمنا عن أن نرى الحضارة الجديدة لقاء بين الشرق الروحى ، والغرب المادى ، وتفاعلا بين الحضارات على تباعد الشقة المكانية والزمانية بين كل منهما، فما السبيل إلى هذا اللقاء ؟ وما وسائله ؛ وما موقف العالم الإسلامى من ذلك كله ؟ هذا ما يعرض له الكتاب فى فصله الأخير « الإسلام والحضارة الإسلامية » .

وقد حرصت على إضافة بعض الهوامش إلى الفصول ، وأن أثبت فى النهاية بياناً بمصادر الكتاب ، يتضح منهما للقارئ أن فصوله كتبت فى أوقات متباعدة ، وأن الدكتور هيكل لم يقصد يوم كتبها أن تكون فصولا منتظمة من كتاب . والواقع أننى قد رأيتها ترتبط جميعاً فى اتجاهها نحو إزالة بعض الغموض الذى يكتنف طريق بعث الشرق ، وأنها ، وإن لم تتسلسل على النحو المألوف للمناهج العلمية ، فهى تتضمن بعض آراء

الدكتور هيكل فى طائفة من المسائل هى موضع بحث الباحثين فى تاريخ الشرق وفى حضارته . وغاية ما أرجو أن يحقق هذا الكتاب وما سيليه من آثار الدكتور هيكل ، بعض تلك الغاية . .

أحمد هيكل

المحامى

القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٦٢